ايها السادة

اعترف بانني لم اوفِ درس قسم حقهُ من البحث والايضاح لان ذلك غير ميسور في مسامرة واحدة وحسبي لفت الاذهان الى درسهِ حق الدرس حتى تتم القدوة الحسنة به ويكثر فيما مثلهُ من الكتاب الذين وصفهم بقولهِ :

« ولكن الكاتب المحب لفنهِ ينشر افكارهُ كما هي ينشر الحقيقة منزهة عن الزيادة والنقصان لا يقبل ان يبدل فيها او يغير منها او يتنازل عن حرف مراعاة لاي امر كان . هو العاشق الذي يعتقد الكمال فيما يحبهُ ولا يتصور وجود شيء يعادلهُ ولا يبالي بذم الناس بل يجد فيهِ نوعاً من حماسة الغضب متهماً لاعصابهِ نشطاً لقواهُ مغرياً لهُ على الاستمرار والثبات »

احمد لطفي السيد

مصر منذ اربعمائة سنة

(٧)

السلطنة المصرية

بقية المقاطعات والكاشفيات

اما الكاشفيات التابعة فواقعة شرقي النيل وهي :

المقاطعة الحادية عشرة . كاشفية المنيا وهي كثيرة الاتساع الا ان بلادها الآهلة بالسكان قليلة وليس فيها سوى ٩ بلدٍ وحاكمها يدفع للباشا اثني عشر كيساً وفي الاغاوات اربعة اكياس وقسطها المفروض عليهِ من خراج السلطنة مائة الف اردب من القمح ولا تدفع مالاً . والكاشف يؤجر الاراضي الى الملتزمين حسب تقدير دفاتر الديوان ولا تروى اراضي هذه الكاشفية الا متى زاد مقياس النيل على ثمانين وعشرين ذراعاً ونصف واذا انخفض عن ذلك تبقى بوراً ولا يزرع فيها الارز ولا القصب لصعوبة الري

المقاطعة الثانية عشرة . كاشفية الشرقية . وهي صغيرة وحاكمها يدفع للباشا خمسة اكياس وفي الاغوات وغيرهم كيساً ونصفاً وقسط هذه الكاشفية من خراج السلطنة عشرون الف اردب قمح وعشرون كيساً وعندهُ من الاجناد السباهية ٣٥ وعدد بلادهِ ٣٢٠ ويزرع في اراضيهِ القمر والليمون

وعند حدود مصر الشرقية مقاطعة صغيرة في برية سيناء تدعى كاشفية قطية وحاكمها

يلقب في الديوان كاشفاً شرقاً يقيم في قلعة حصينة لحفظ الحدود من تعدي قبائل العرب ويدفع للباشا اربعة اكياس والى الجند كيسين . وفي بربة سبناء ثلاثة قلاع أخرى وحصون تحت سلطة هذا الحاكم . وتحت امره قوة كبيرة من الجنود تدفع رواتبهم وعلائفهم من الخزينة السلطانية

وكل الاراضي المصرية ملك السلطان يحكم الفتح تؤجر بالالتزام و يدفع عنها الخراج او تؤخذ منها العشور ما عدا الاراضي الموقوفة على الحرمين وعلى بعض الجوامع والحجاج الفقراء والاعمال الخيرية . وتقسم هذه الاوقاف الى اربعة اقسام كبيرة وهي الاوقاف السليمانية والمحمودية والمرادية والحسنية على اسماء السلاطين الذين وقفوها (وسيأتي بيان ذلك في باب الايرادات المصرية) وليس عليها خراج سلطاني فكل ريعها يصرف في الابواب الموقوفة لها

وقال وانسليب سنة ١٦٧١ « وتقسم مصر الى ست وثلاثين مقاطعة او كاشفية في كل منها حاكم يدعى كاشفاً يرجع في احكامه الى ديوان الباشا بمصر عدا كُشّاف الصعيد الاعلى فانهم تابعون حاكم الصعيد وهو مستقل في اعماله . وهذه اسماء كاشفيات الصعيد الاعلى . ابو تيج . طما . طهطا . العيرات . جرجا وهي حاضرة صاحب الصعيد . ثم بردیس وفرشوط وبهجورة وارمنت واسنا وكلها غربي النيل

واما مقاطعات الصعيد الواقعة شرقي النيل فهي اخميم وشرقي المرج وخيام وشرقي قاو وقوص وقنا والقصر وايريم . ثم كاشفيات الصعيد الاوسط وهي منفلوط وتمتد اراضيها واحكامها الى الواحات ثم كاشفية الاشمونين ومقام حاكمها في المنيا ثم كاشفيات بني سويف والفيوم والجيزة والخليج . واما الكاشفيات البحرية فهي المنوفية والغربية والبحيرة والقليوبية والمنصورة والشرقية »

وقال ماليت فنصل فرنسا في مصر سنة ١٦٨٠ :

« وقد اختلفت الكتاب في تقسيم المقاطعات المصرية على عهد المصريين القدماء فقال احدهم انها كانت اربعين مقاطعة واما هيرودوتس فقال انها ثمانية وعشرون وقال غيره ان الكهنة قسموا البلاد بحسب اختلاف المسودات التي كانت تعبد فيها »

المدن المصرية

قال ماليت سنة ١٦٨٠ « كان في مصر على قول بعض المؤرخين والكتاب ثمانية عشر الف مدينة وبلد وعلى ظني انهم بالغوا كثيراً في تقديرهم هذا حتى ان اوسابيوس المؤرخ

القديم المعروف قال ان عدد المدن المصرية على عهد الملك الحميس يبلغ نحو عشرين الف مدينة . وقال لاغوس ان عددها لم يزد عن الثلاثة آلاف على عهد الملوك البطالسة . وبين هذين القولين اختلاف عظيم ولكن على ما نرى ان اوسابيوس وهيرودوتس حسبا في تقديرهما كل المدن والقرى والعزب . واما لاغوس فلم يحص سوى المدن الكبيرة الآهلة . والحقيقة ان مصر كانت بلاداً عامرة آهلة كثيرة السكان لانك تجد بين كل مرحلة واخرى بلاداً قديمة خربة واطلالاً دارسة واذا اعتبرنا بالمدن البلاد الحصينة ذات الاسوار فليس في مصر الآن مدن محصنة بالقلاع سوى الاسكندرية ودمياط ورشيد والمنصورة حتى ان القاهرة نفسها تهدمت اسوارها وليس فيها حصن سوى القلعة العظيمة المشرفة عليها »

تعداد سكان مصر واجناسهم

قال ماليت « يصعب كثيراً معرفة عدد سكان البلاد المصرية واحصائهم بالتدقيق . واذا رجعنا الى اقوال بعض المؤرخين القدماء نرى ان اوسابيوس قدرهم على عهد الفراعنة بسبعة ملايين ونصف وقال غيره انهم بلغوا عشرين مليوناً واتبع هذا الرأي مؤرخو العرب فيما بعد . وهذا الرأي يحتمل تصديقهُ لان شواطئ النيل وضفاف الترع من الاسكندرية الى اسوان كانت مكتظة بالبلاد العامرة المتلاصقة . ولكن تقلب الحكومات العديدة وخراب المدن القديمة وتوالي الاضطهادات والظلم والفقر والامراض والاوبئة ادت الى نقص كبير في سكان مصر . ولقد اقمت في وادي النيل نحو خمس عشرة سنة وجلت في ارجائهِ وخبرت احوالهُ وقرأت كتب مؤرخي العرب عنهُ فغلب على ظني ان تعداد سكانهِ لا يتجاوز الآن الاربعة ملايين . انظر الى خرائب الاسكندرية القديمة فقد قرر المؤرخون القدماء ان عدد سكانها مع ضواحيها بلغ في ايام مجدها وعظمتها على عهد البطالسة والرومان ثلاثة ملايين . واما الآن فلا يزيد على خمسين الفاً . ومدينة مصر القاهرة التي مجموع سكانها يعادل ثمن سكان القطر كله لا يزيد عدد سكانها على ثلاثمائة وخمسين الف نفس فعلى هذ القياس التقريبي كان عدد سكان القطر المصري ثلاثة ملايين . وعدا ذلك فمعدل الوفيات كثير بمصر وخصوصاً عند تفشي الطاعون . وقال لي احد المرسلين الكاثوليك وقد اقام مدة طويلة في البلاد انهُ حدث طاعون منذ عشرين سنة ومات فيهِ نحو مليونين من السكان فقد ثبت هذا وباء متفشياً في مصر اكثر من تسعين يوماً وكان متوسط الوفيات اليومية عشرين الفاً وفي الاقرار وحدها كان يموت في اليوم الف نفس

« وذكر المؤرخون القدماء انهُ لما اجتاح احشويرش ملك الاشوريين البلاد المصرية اخذ اكثر اهلها اسرى بعد ان خرب المدن وردم الترع والاقنية وعدم المباكل والقصور العظيمة حتى اصبحت البلاد خراباً يلقعاً . ولما جلس قسطنطين الكبير على عرش بزنطية وتدين بالنصرانية اصدر امراً بقتل الوثنيين في مصر اي المصريين القدماء وهدم هياكلهم ومحق اثارهم . ولما جلس يوليانوس الملقب بالجاحد بعدهُ نقض امر قسطنطين وامر بقتل المسيحيين وهدم كنائسهم فكل هذه الاسباب من بواعث نقص السكان منذ القديم

الاقباط

« واما سكان مصر الآن فمؤلفون من المسلمين المصريين او بالحري الفلاحين ومن الاقباط والعربان والاتراك والارواموالهود والسوريين والارمن والافرنج . والاقباط وحدهم من بين هذه الاجناس هم المصريون الاصليون . وكانوا يعدون بالملايين واما الآن فيعدون بالالوف . فقد نقص عددهم نقصاً كثيراً متوالياً منذ توالت احكام اليونان والرومان والبزنطيين والعرب والاتراك والمماليك وتحملوا اضطهادات كثيرة على عهد قياصرة الروم في القسطنطينية بسبب اتباعهم مذهب ديوسقورس واثخوس القائل ان للمسيح طبيعة واحدة وقد دان بالاسلام جزء كبير منهم بعد الفتح . واشتد الاضطهاد عليهم على عهد السلاطين الفاطميين والايوبيين وخصوصاً في زمن الحاكم بامر الله والباشاوات الاتراك والحكام المماليك حتى اصبح عددهم الآن لا يزيد على ثلاثمائة وخمسين الفاً »

قال واتسليب سنة ١٦٧٠ :

« اما الارواممصر فهم من مهاجري المورة والجزر اليونانية وليسوا من نسل اليونان الفاتحين الذين كانوا على عهد الاسكندر والبطالسة وكثيرون منهم اختلطوا الآن بالاقباط بواسطة الزواج فقدوا جنسيتهم . واما عدد الاقباط بمصر فقد نقص نقصاً كبيراً بسبب الاضطهادات المتوالية التي انزلت بهم في عهد الحكم اليوناني والروماني والبزنطي والاسلام فقد كان عددهم عشرة ملايين حينما افتتح الاسكندر بلادهم وبعد الفتح الاسلامي نقص عددهم الى ستمائة الف . واما الآن فيبلغ خمسة عشر الفاً كما قال بطريركهم حينما زرتهُ (١)

وسبب هذا النقص العظيم توالي الاضطهادات من عهد ملوك الرومان كما تقدم القول فقد قتل الوثنيون منهم في اوائل النصرانية نحو مليون نفس . وقتل منهم في ليلة عيد

(١) لا ريب ان واتسليب اخطأ في هذه الرواية وربما ازداد عدد الاقباط في القاهرة

بلاد بابر ديو قصيانوس قيصر ثلاثون الفاً دفنوا في جس نعم وفي رواية بعض المؤرخين انهُ قتل منهم في نوحي مصر في بدء النصرانية عدد هائل حتى عظم جثث الشهداء مساحة ثمانين فداناً من ارض الصعيد . وتحمل اضطهادات كثيرة من قياصرة الروم المسيحيين لسبب تمسكهم بعقيدة ديوسقوروس القائل ان للمسيح طبيعة ومشيئة واحدة . وقتل منهم في الاسكندرية وحدها بامر الملك يوستنيانوس نحو مئتي الف نفس في يوم واحد حتى اضطر من بقي بلادهم ويتلفوا في البراري والقفار ومن ذلك الوقت نشأت ادبرة النساك في الصحارى والواحات . وبعد الفتح الاسلامي تدين كثيرون منهم بالاسلام حتى كانت بلاد وترى تدخر الواجاً في الاسلام باهلها وقسيسيها ومشايخها وهذا سبب نقص عددهم »

وقال في موضع آخر « ذهبت في ٢٠ ستمبر لزيارة بطريرك الاقباط وكانت توثقت عرى الصداقة بيني وبينهُ ودعوتهُ ان يتناول الغداء معي في منزلي . فأبى وقال انهُ لا يقدر أن يخرج من قلايتهِ خوفاً من ان يلحق بهِ اذى وانهُ لم يخرج من دار البطركية منذ اكثر من سنة لان الحكام وضعوا عليهِ الرقباء والجواسيس واذا خرج فانهم يتخذون ذلك حجة لاضطهادهِ ولا ستخراج المال منهُ . وشكا لي كثيراً من هذا التضييق وقال ان كل البطاركة بمصر من الطوائف الاخرى احرار فيما يفعلون فيزورون منازل رعاياهم ويتنزهون ويسافرون اينما شاؤوا واما انا فلا يسعني بالخروج من داري الاَّ بامر الباشا بعد ان اوضح الغرض من سفري ودفع بعض المغارم على سبيل الخفران

« والحق يقال ان لا طائفة مسيحية تحمل الضيق غير هذه الطائفة المسكينة لان ليس لها عضد من احد فليس بين ابنائها واعضائها من هو عظيم الوجاهة او كثير العلم او ذو ثروة وسلطة ليدافع عن ابناء جلدتهِ فليس لاحد من الاقباط منزلة او اعتبار عند الاتراك لكنهم مكروهون من الحكام والاهالي وهم عندهم ثقالة العالم . وكثيراً ما يخطر على بال الحاكم ان يأمر بافقار كنائسهم حتى بيوتهم ايضاً بلا سبب لكي يبتز منهم المال

« وحدثت اثناء وجودي بمصر حادثة جديرة بالذكر وهي ان احد الانكشارية غضب يوماً على عشيقتهِ وهي مومس فذبحها واخذ جثتها والقاها في بركة الازبكية بالقرب من حي الاقباط . ولما رآها السربائي محافظ المدينة عند الصباح امر الاقباط بدفنها وامر

باقفال كل بيوت الاقباط القريبة من هناك وتسميرها ولم يسمح بفتحها الاَّ بعد ان دفعوا له الفي غرش ديواني[1] دية دم تلك النفس

« وفي هذه السنة ضاعف ابرهيم باشا نائب السلطان وحاكم مصر الضرائب على الاقباط بمصر . وكانوا يدفعون قبلاً مبلغاً محدوداً في كل سنة للخزينة السلطانية وضرائب اخرى معينة لبعض الاشراف كالسيد البكري وسيد السادات وغيرهما وهذه المغارم معروفة بضرائب الحماية وذلك عدا ضريبة الاعناق وهي غرشان عن كل رجل بالغ من الاقباط . وهذه الضريبة تزيد وتنقص تبعاً لعدالة الحاكم او ظلمه . واما الضرائب المفروضة على الباط العسيد والارياف فموزعة على القرى والبلاد فكل قرية تدفع مبلغاً محدوداً والاقباط يجمعونها من بينهم ولما ضاعفها ابرهيم باشا هذه السنة وارسل الخولية لجمعها من البلاد فرَّ كثيرون من الفقراء الى الجبال والقفار وتركوا منازلهم خوفاً من الظلم وضرب السياط . ويعطي كل من يدفع هذه الضريبة ورقة حمراء عليها ختم السوباشي واسم القبطي الدافع ولا يقيد فيها سوى ثلثي المبلغ المدفوع لان الثلث الثالث رسم اواجرة للسوباشية والخولية »

وقال مايلت عن العربان سنة ١٨٠٠ :

« واما قبائل العربان بمصر فهم مشتتون في اطراف البلاد ولهم امتيازات مخصوصة . ومنهم البدو وهم اهل وبر يعيشون تحت الخيام وينتجعون المراعي والاراضي الخصبة »

اليهود وغيرهم

واما اليهود ففي ايديهم مالية البلاد وجمارکها وكبارهم يتعهدون بتقديم الفضة والذهب لدار الضرب السلطانية بمصر . واما الافرنج والسوريون والارمن فاصحاب مهن وحرف وتجارة »

الفلاحون

وقال في موضع آخر

« واما الفلاحون المسلمون فهم تحت سيطرة الحكام الاتراك يتحفزون في الفلاحة وبناء الجسور والاعمال الشاقة والسياط على ظهورهم واسم الفلاح عند التركي ممقوت مكروه

---

[1] الغرش يساوي عشرة من قروشنا فهي قساوي الف جنيه بقودنا اليوم

الترك

وقال في موضع آخر عن الاتراك ووفوده الى مصر:

« فبعد ان استولى السلطان سليم الاول على مصر سنة ١٥١٧ اقبل الاتراك والجراكسة والالبانيون والارناؤوط والاروام من كل انحاء السلطنة الى مصر للارتزاق واستثمار الاراضي واستلام زمام الاحكام وحضر ايضاً عدد كبير من اليهود الاسبان على اثر اضطهادهم وطردهم من بلادهم . وفي كل سنة يقبل الى مصر كثيرون من العالم الاسلامي للتجارة والارتزاق من تونس والجزائر ومراكش وفاس . ولما استولى البنادقة على بلاد المورة وجزائر بحر الروم اقبل كثيرون من الاروام للارتزاق . وكذلك لما استولت النمسا على المجر هاجر كثيرون من اهلها الى مصر وقد تدين اكثرهم بالاسلام ودخلوا في رحلقات الانكشارية والسباهية وتولوا زمام الاحكام . واقبل من اسطنبول كثيرون من الضباط والاغوات والوزراء المعزولين وتوطنوا في مصر ووجدوا من حكامها الحماية والتعضيد . واعظم وزير الآن ومقرب لدى السلطان في اسطنبول يفضل ان يكون وزيراً في مصر على ان يكون صدراً اعظم او والياً على اعظم ولاية في السلطنة . وكثيرون من الوزراء واغوات الوجاقات احضروا معهم الى مصر التحف والجواهر التي رفعت في قبضة ايديهم من السرايات السلطانية في ابان الفتن التي حدثت في اسطنبول او عند عزل السلاطين »

وقال مالبت ايضاً في موضوع آخر

« واكثر السوريين بين يوناني وكاثوليك مقيمون في دمياط ورشيد واكثر التجار الافرنج في الاسكندرية واما اليهود فمنتشرون في كل البلاد وهم يهود اصليون من زمن الفتح ويهود مهاجرون ويبلغ عددهم جميعاً ٢٥ الى ٣٠ الفاً »

وقال مارسل في اواخر القرن الثامن عشر عن تعداد اهالي مصر « كانت البلاد المصرية عامرة آهلة على عهد ملوكها الاقدمين . فقال بعض مؤرخين ان المصريين كانوا يبلغون عشرين مليوناً . واتبعهم كتاب العرب في هذا الرأي غير ان ديودورس الصقلي المؤرخ اليوناني (عاش على عهد اغسطس قيصر وكتب مؤلفات تاريخية كثيرة) وسترابون (جيوغرافي يوناني من اهالي كان في زمن طيبار يوس قيصر) قالا ان عدد سكان مصر ثمانية ملايين على عهد ملوك البطالسة . ولما فتح عمرو بن العاص مصر كانت كثيرة السكان وبلادها عامرة . . . الآن نيصعب علينا معرفة الاحصاء الحقيقي لسكان

وادي النيل . فقد جرى اخيراً احصاء تقريبي مبني على عدد البيوت في مصر والقطر والاريافي فوجد ان الذكور القادرين على حمل السلاح بلغوا نحو مليون ونصف . واما مجموع التعداد فبلغ نحو مليونين وتسعمائة الف تقريباً وهذا بيانهم بحسب اجناسهم :

٢٦٠٠٠٠٠	مسلمون مصريون
١٥٠٠٠٠	اقباط مصريون
١٢٠٠٠	اتراك
٧٠٠٠٠	عربان وبدو
٥٠٠٠	برابرة ونوبيون
٢٠٠٠	عبيد وزنوج
٥٠٠٠	مماليك جراكسة وارناؤوط وجيورجيون
٧٠٠٠	يهود
٥٠٠٠	سوريون
٥٠٠٠	اروام
٢٠٠٠	ارمن
١٠٠٠٠	افرنج اوربيون
٢٨٩١٠٠٠	

وهذا بيان اجناس الاوربيين

٣٠٠٠	ايطاليون (منهم ١٠٠٠ مالطيون)
٦٠٠٠	فرنسويون
٣٠٠	انكليز
٣٠٠	نمسويون
٥٠	روس ويهود
٢٠	اسبان
١٥٠	سويسريون وبلجيكيون وهولنديون وبروسيون ودنماركيون
٩٦٢٠	

وإذا بحثنا في التفاوت العظيم في عدد سكان القطر المصري بين عهد الفراعنة والبطالسة وبين هذا الزمن وجدنا ان ذلك ناتج من تقلبات الاحكام والغزو وبواعث الخراب والدمار وتوالي الحروب والفتن والامراض والاوبئة ولاسيما الطاعون والمجاعات المتعددة في سني القحط وانخفاض النيل

وصف القاهرة وضواحيها

كان تنود قد حضر الى مصر سنة ١٥١٢ تابعاً لفرنسوى دي جيهان المرسل سفيراً ومعتمداً سياسياً من لويس الثاني عشر ملك فرنسا لدى قانصوه الغوري سلطان مصر لتقرير السلام وحل المشاكل التجارية والسياسية بين الحكومتين والسعي في فتح كنائس بيت المقدس . وقد جرى هذا السفير استقبال حافل في الاسكندرية ومصر على مثال ما استقبل سفير البندقية . قال تنود :

« وفي ١٥ مارس رحلنا الى بولاق فاستقبلنا امير ال السلطان والمماليك وارسلت لنا الجياد من الاسطبل السلطاني . وخصص لنا قصر عظيم لنزول السفير واتباعه وهو قصر ثم مزخرف بالنقوش المذهبة واعمدة المرمر والفسيفساء وابوابهُ من الابنوس المرصع بقطع العاج والصدف . وقد قيل لنا ان نفقات بنائهِ وزخرفة نقوشهِ بلغت ثمانين الف دوقة ذهب وحولهُ بستان كبير غرست فيهِ كل الاشجار المثمرة من برتقال وتفاح وليمون ويرقوق وموز يروى من مياه النيل بواسطة السواقي وتجري اليهِ في اقنية تحت الارض . وبين بولاق والقاهرة نحو الف بستان للسلطان على هذا المثال

« وفي اليوم الثاني من وصولنا وصل ركب الحج من مكة بقيادة امير الحج وهو ابن عم السلطان الغوري ومع هذا الركب مائة الف جمل لحمل امتعة الحجاج والبضائع المختلفة التي وردت للسلطان من بلاد العرب والهند بواسطة تجارهِ ومديري اموالهِ تحت حراسة مائة مملوك وكل هذه الالوف من الاكياس ملآنة بالبهارات والعطورات والادوية والفارجيل والحجارة الكريمة والسجادات العجمية

« وبعد ثلاثة ايام استقبل السلطان السفير للمرة الاولى بعد ان ارسل لنا هدايا كثيرة مؤلفة من طيور ودجاج وزبدة ورز وسكر وعسل واثمار . كما ان السفير قدم للسلطان الهدايا المرسلة لهُ من ملك فرنسا وهي مؤلفة من ثياب واقمشة حريرية وديباجية وكلها منسوجة بالذهب واثواب من صوف بديعة الصنع قيمتها الفا دوقة ذهب . وقابل السلطان السفير مرحباً بهِ ومبالغاً في مجاملتهِ والتلطف بهِ وقال لهُ : انهُ اليهِ السفير عندنا

على الرحب والسعة فانت واتباعك في ضيافتي مدة اقامتك بمصر واحسب نفسك كأنك في فرنسا وطنك

« وجرى اثناء اقامة السفير بالقاهرة مهرجان فتح الخليج وهو عيد وطني عظيم تقام فيه الحفلات والملاعب وتنصب الخيام في ميدان واسع بالقرب من جزيرة الروضة وتزين المراكب وتطلق الانوار المختلفة ويقبل السلطان والامراء والعلماء والاعيان ويحتفون عند الخليج باحتفال عظيم فتجري المياه فيه ويحترق القاهرة ويكون ذلك اليوم يوم فرح عام عند الاهالي ويلقون انفسهم في الخليج عراة رجالاً ونساء واولاداً وتجري مسابقات كثيرة في السباحة »

ولما حضر السائح نوردن الدنمركي سنة ١٦٣٥ حضر حفلة فتح الخليج ورسم موقع الاحتفال والزينات والملاعب وموقف الجنود والاعيان والامراء وهي اقدم صورة اخذت فنقلناها لاطلاع القراء عليها كاثر عياني قديم

ولفائدة نذكر كيف كانت تقام حفلة فتح الخليج على عهد سلاطين مصر نقلاً عن كتاب تاج الرياسة لابي القاسم الشهير بابن الصيرفي المأخوذ عن نسخة خطية في مكتبة كمبردج نشرها سنة ١٩٠٥ حضرة مدير الاثار العربية

ركوب الخليفة لفتح الخليج

« وكان يقع الاهتمام عندهم بركوب هذا اليوم من حين يأخذ النيل في الزيادة ويعمل في بيت المال من التماثيل المختلفة من الغزلان والسباع والفيلة والزرافات عدة وافرة منها ما هو ملبس بالعنبر ومنها ما هو ملبس بالصندل مفسرة الاعين والاعضاء بالذهب وكذلك يعمل اشكال التفاح والاترج وغير ذلك وتخرج الخيمة العظيمة فتنصب للخليفة في بر الخليج الغربي وتلف عمد الخيمة بديباج احمر او ابيض او اصفر وينصب فيها سرير الملك مستنداً اليه ويفرش بقماش كتان بيض وعرابيه ذهب ظاهرة ويوضع عليه مرتبة عظيمة من الفرش للخليفة ويضرب لارباب الرتب من الامراء بحري هذه الخيمة خيم كثيرة على قدر مراتبهم ثم يركب الخليفة على عادته في المواكب العظيمة بالغاشية وتوضع من السيف والرمح والالوية وسائر الآلات ويزاد فيه اربعون بوقاً عشرة من الذهب وثلاثون من الفضة ومن الطبول العظام عشرة فاذا كان يوم الركوب حضر الوزير من دار الوزارة راكباً على هيئة عظيمة ويركب حينئذٍ ارباب القصر الذي يخرج منه الخليفة ويسير معه الاستاذون المخنثون مشاة حوله وعليه ثوب يسمى « البدنة » حرير مرقوم بذهب لا يلبسه

غير ذلك اليوم وبغلة بسبتية . ويسير الموكب على هذا الترتيب حتى يأتي الى الجامع الطولوني ويكون قاضي القضاة واعيان الشهود جلوساً ببابه فيقف لهم الخليفة وقفة لطيفة ويسلم على القاضي فيتقدم ويقبل رجلهُ التي من جانبه ويأتي الشهود امامهُ ويقفون اربعة اذرع عنهُ فيسير عليهم ثم يركبون ويسير الموكب حتى يأتي ساحل الخليج . فاذا قرب الخليفة الخيمة يتقدمهُ الوزير على العادة المتبعة فيترجل الخليفة على باب الخيمة ويجلس على الكرسي الموضوعة لهُ فوق السرير ويحيط به الاستاذون المحنكون والامراء المطوقون ويوضع للوزير كرسيهُ كالعادة ليجلس ورجلاهُ يطآن الارض . ويقف ارباب الرتب صفين من سرير الملك الى باب الخيمة . وقرّاء الخضرة يقرأون ساعة فاذا فرغوا استاذن صاحب الباب على دخول الشعراء للخدمة فيؤذن لهم . فيتقدمون واحداً بعد واحد على مقدار منازلهم المقررة لهم وينشد كل منهم ما وقع لهُ نظمهُ فاذا يفرغ يتقدم غيرهُ والحاضرون يثنون على كل شاعر بما يقولهُ ويحسنون لهُ ما حسن . فاذا انقضى هذا المجلس قام الخليفة عن السرير فركب الى النظرة المعروفة بالكرة والوزير بين يديهِ وقد فرشت بالفرش المعدة لها . فيجلس الخليفة بمكان معد لهُ منها ويجلس الوزير بمكان منها بمفرده . ويجلس القاضي والشهود في الخيمة البيضاء الديبقي فيطل منها استاذ من الاستاذين المحنكين فيشير بفتح السد فيفتح بالمعاول وتضرب الطبول والابواق من البرين . وفي اثناء ذلك يصل السماط من القصر صحبة صاحب المائدة وعدتها مائة شدة من الطيافير الواسعة في القواوير الخزير وفوقها الطراحات النفيسة وريح المسك تفوح منها فيوضع في خيمة وسيعة معدة لذلك ويحملون منها للوزير واولاده ثم للقاضي القضاة والشهود ثم الى الامراء على قدر مراتبهم . وعلى الموائد من انواع التماثيل المقدمة الذكر خلا القاضي والشهود فانهُ لا يكون على موائدهم تماثيل . فاذا اعتمد ذلك في الخليج دخلت فيهِ العشاريات (الذهبيات) القطاف ووراءها الكبار وهي سبعة الذهبي المخلص بالخليفة والفضي والاحمر والاصفر والاخضر واللازوردي والصقلي وهو عشاري انشاهُ تجار من صقلية وعلى العشاريات الستور الديبقي الملون وفي اعناقهم لاهلة وقلائد العنبر والخرز الازرق ويسير حتى يرسو على بر النظرة التي فيها الخليفة . فاذا صعد الخليفة العصر ركب لابسًا غير الثياب التي كانت عليهِ في اول النهار ويسير في البر الغربي من الخليج حذاء البستين حتى يصل الى باب القنطرة ويسير الى القصر »

ديتري نقولا

الاحتفال بفتح الخليج سنة ١٦٣٥

(١) القلعة (٢) بولاق (٣) النيل (٤) اول الخليج (٥) السد (٦) فم (٧) ميدان الاحتفال (٨) مدفعان (٩) كبري فوق الخليج
(١٠) مركب الامير علي بك

منقطف اغسطس ١٩١٢ امام الصفحة ١٧٢